محمد المختار السوسي

سوس العالمة

صـــــورة المـــؤلـف

الحـــق حـــق وفيـــــه احيـا والقـى الحمـامـــــا
فمـــاراعـــش فمحـــــق وان امـــت فســـلامـــــا
ومـــا ابـالـي اذا مـــــا حسنـت ربـي الختـامـــا

من قطعة قالها المؤلف فى شرخ شبابه

الاهـــداء

كان سبب ابتدائي لمباحث هذا الكتاب استاذي الجليـــل علامة الشرفاء ، وامام الكرماء ، ابـن زيـدان ، يوم زار ســوس وكتب رحلته السوسية فى كراسة ، فناولنيها على ان اذيل عليها ، واستتم كل ما يتعلق بالعلوم العربية فى كل ادوار التاريخ بسوس ، فلم ازل اتوسع فى الموضــوع حتى صار الموضوع الى ما يـــراه القارىء . افليس من الواجب المتاكد ان يكون الكتاب باسم استاذنا الجليل ابن زيدان الذي ترك فراغا لم يحاول احـد ان يملاه ولا طمع فيه متطاول ؟ والاعتراف من التلميذ لتاثير استاذه من ادنى واجبات الاساتذة على التلامذة .

اذا افـادك انســان بفائـدة من العلوم فأَدْ مِن شكره ابـدا
وقل فلان جزاه الله صالحـة افادنيها وخل الكبر والحسدا

م خ س

كلمة

فى المغرب حواضر وبواد ، وتاريخه العلمي العام ، لا يمكن ان يتكون تكونا تاما الا من التواريخ الخاصة لكل حاضرة من تلك الحواضر ، ولكل بادية من هذه البوادي ، فاذا كان بعض الحواضر ، فازت بما يلقى على تاريخها العلمي بعض ضوء ينير الطريق للسالكين ، فان تلك البوادي المترامية لا تزال الى الآن داجية الافاق فى انظار المتطلعين الباحثين ، فهذه تافيلالت ، ودرعة والريف وجبالة ، والاطلس الكبير وتادلة ودكالة وامثالها ، قد كان لها كلها ماض مجيد فى ميادين المعارف العربية ، فهل يمكن ان يجد الباحث اليوم ما يفتح امامه صفحاتها حتى يدرك ما كان فيها طوال قرون كثيرة من النشاط والاكباب والرحلة فى سبيل الثقافة ، فكم سجلماسي ودَرعي وريفي وجبالي واطلسي وتادلي ودكالي وشاوي يمر باسمه المطالع اثناء الكتب ، وكم مدارس ، وزوايا علمية ارشادية فى هذه البوادي لا تزال آثارها الى الآن ماثلة للعيون ، او لا تزال الاحاديث عنها يَدَوِّي طنينها فى النوادي ، فأين ما يبين كنه أعمالها ، وتضحية اصحابها ، وما قاساه اساتذتها واشياخها فى تثقيف الشعب ، وتنوير ذهنه ، وتوجيهه التوجيه الاسلامي بنشر القرآن والحديث . وعلوم القرآن والحديث ، من اللغة والبيان والفقه وسيرة السلف الصالح ؟ افيمكن ان يتكون التاريخ العام للمغرب تاما غدا اذا لم يقم ابناء اليوم ــ والعهد لا يزال قريبا ، ولمّا تفمُرْنا امواجُ هذه الحضارة الغربية الجارفة التي تحاول منذ الآن حتى افساد ماضينا بما يكتبه عنا بعض المغرضين من اهلها ــ بجمع كل ما يمكن جمعه ، وتنسيق ما لا يزال مبعثرا بين الاثار ، ومنتشرا اثناء المسامرات ، فانه لو قام من كل ناحية

رجال باحثون ببذل الجهود ، لتكونت بما سيهيئونه من التاريخ الخاص لكل ناحية ، مراجع عظيمة ، سيتكىء عليها الذين سيتصدرون للتاريخ العام المستوعب فى العالم العربي المغربي غدا ، بله الحوادث والاطوار المتقلبة ، وما هذا الغد ببعيد ، وتباشير فجره تلوح الآن فى الافق .

قد يخطر فى بال بعض الناس القصيري النظر : ان السجلماسي او الدكالي ـ مثلا ـ اذا تصدى كل واحد منهما لمثل هذا البحث فى ناحيته ، ان ذلك من العنصرية المقوتة التي لا يزال المستعمرون امس يضربون فى كل فرصة على وترها لجعل المغرب اشلاء ممزعة ، مع ان هذا العمل ليس من العنصرية فى شيء ، فهل اذا توفر الطبيب للتخصص فى بحث ما حول عضو من اعضاء الذات ، نلمزه بالعنصرية ازاء الاعضاء الاخرى ؟ وهل اذا قام رب اسرة بكل ما تحتاج اليه اسرته بالانفاق عليها وحدها، وبالدفاع عن حقوقها ، وتحديد املاكها الخاصة ، يلمز ايضا بالعنصرية ؟ او هل الذين كتبوا عن فاس ومراكش واسفي وطنجة وتيطاون والعدوتين، وخصصوا كل مدينة على حدة ، يلمزون بالعنصرية ؟ ان هذا لخطل فى الرأي ، وخطأ فى تقدير الاعمال ، وسد للابواب دون العاملين فى ميدان خاص ، وتثبيط لاعمال المجتهدين .

ان لليوم غدا ، وان فى الميدان لافراسا مطلقة ، وان ابواب العمل مفتوحة على مصاريعها امام كل من يريد ان يعمل فى اي ميدان من الميادين . وقد زالت الاعذار بالاستقلال . وامكن لكل ذي عزيمة ان يعمل فهل للكسالى ان ينتفضوا فيدخلوا فى غمار العاملين . عوض ان يملأوا الجواء بالنقد الزائف . والاعذار الواهية . فعند الممات تظهر التركات ، وانما الاعمال بالنيات ، ومن ابطأ به عمله ، فلا يلومن الا نفسه :

اقلوا عليهم لا ابا لابيكم من اللؤم او سدوا المكان الذي سدوا

هذا وانني ـ انا ذلك السوسي المولع بالتاريخ منذ نشأته ـ لأبذل كل ما فى امكاني للكتابة عن بادية سوس ، منذ نفيت اليها فى مختتم : 1355 هـ. الى ان افرج عني الافراج التام فى مختتم : 1364 هـ. توفرت

على ذلك ، وجمعت فيه جهودي ومن لم يتوفر على شيء ويجمع فيه جهوده ، فقلما يعطيه حقه من البحث ، فقد سودت فى (الغ) مسقط راسي ، حيث الزمت العزلة عن الناس ، اجزاء كثيرة تناهز خمسين جزءا فى العلماء والادباَ والرؤساء والاخبار والنوادر ، والهيأة الاجتماعية ، وما هذا الكتاب (سوس العالمة) الا واحد من تلك الاجزاء ، وكلها مقصورة على اداء الواجب علـَّي ، من احياء تلك البادية التي سبق فى الازل أن كنت ابنا من ابنائها ، ويعلم الله انه لو قدر لي ان اكون ابن تافيلالت او درعة او الريف او جبالة او الاطلس او تادلة او دكالة ، لرأيت الواجب علـَّي أن اقوم بمثل هذا العمل نفسه ، لتلك الناحية التي تَنَبْتَ نبعتي فيها ، لانني من الذين يرون المغرب جزءا لا يتجزأ ، بل ارى العالم العربي كله ، من ضفاف الاطلسي الى ضفاف الرافدين وطنا واحدا ، بل ارى جميع بلاد الاسلام كتلة متراصة من غرب شمال افريقيا الى اندونيسية ، لا يدين بدين الاسلام الحق من يراها بعين الوطنية الضيقة التي هي من بقايا الاستعمار الغربي فى الشرق ، بل لو شئت ان اقول ـ ويؤيدني ديني فيما اقول ـ : انني ارى الانسانية جمعاء اسرة واحدة ، لا فضل فيها لعربي على عجمي الا بالتقوى ، والناس من آدم ، وآدم من تراب (يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، ان اكرمكم عند الله اتقاكم) .

ايه فهذه سوس وجدت من هذا السوسي من يبذل جهوده حول احياء تاريخ بعض رجالاتها ، فليت شعري هل تجد تلك البوادي الاخرى، بل وبعض الحواضر التي لم يكتب عنها بعدُ أي شيء . من تثور فيه الحمية المحمودة ، ـ وفى ذلك فليتنافس المتنافسون ـ فيفتح لنا الابواب التي نراها لا تزال موصدة ؟ اننا ايها الفيلالي والدرعي والريفي والجبالي والاطلسي والتادلي والدكالي لمنتظرون . ام يذهب هذا النداء كصرخة الوادي بين ثنايا الصدى ؟

وبعد : فان تاريخنا لم يكتب بعدُ كما ينبغي ، حتى فى الحواضر التي كتب عنها كثيرون قديما وحديثا ، فهذه مراكش التي كتب عن رجالاتها الزائرين والساكنين شيخنا سيدي عباس ، لم تفز بعدُ بمن

يكتب عن نواح شتى من ادوارها التي تقلبت فيها ، وقد كنت اجمع كتابا فى ذلك سميتـــه (مراكش فى عصرهـــا الذهبي) مشيت فيـــه خطوات ، ومقصودي اظهار مراكش كما هي سياسيا وعلميـــا وادبيـــا واجتماعيا فى عصر المرابطين والموحدين ، وبينما انا مكب على جمع المواد ــ وما اكثرها ــ بمناسبة استيفاء مراكش اذ ذاك سنة 1354 هـ. تسعمائة سنة ، اذا بالنفي مختتم 1355 نادى مناديه ، فتركت على رغمي الكتابة حـــولَ مراكش الذهبية التي هي العاصمة العظيمة للمغرب ردَحا من الزمـــان الى الكتابة حول تلكم القبائل التي تكانف هذه القرية الساذجة المغمـــورة (الـــغ) (1) (ولو خيرت لاخترت) فقدر لبني هذه القرية ومجاوريهـــم ولاساتذتهم ولتلاميذهم ولاصدقائهم كتاب (المعسول) الذي يصـــل الآن ــ وقد كـــاد يتم تخريجه ــ عشرين جزءا ، حوول فيه ان يكتب باسهاب كل مـــا امكن عن السوسيين بادنى مناسبة ، ثـــم ليس ذلك كله بالتاريـــخ المطلوب عن سوس ، وانما المقصود جمع المواد لمن سيكتبون وينظمـــون غدا ، وهذا هو الواجب الآن علينا . واما ان ندعـــي اننـــا حقيقة نكتب التاريخ كما ينبغي ، فان ذلك افك صراح ، اولا ترى ان كل من عرف فاسا وما ادراك مـــا فاس ، واستحضر مـــا كتب حولها من القرن الرابع الى الآن كتابة ناقصة مجحفة ، وقد ادرك الدوْر العظيم الذي مثلته فـــاس لا في المغرب ولا فى شمال افريقية وازاء الاندلس فحسْب ، بل وفى العالـــم الاسلامي اجمع ــ يوقن ان تاريخها لم يكتب بعـــد كمـــا يجب ان يكتب ، فكثيرا ما اقول لو تصدى باحث او باحثون لكتابة تاريخ فاس من نواحيها كلها ، لفتحوا صفحة عربية ذهبية وهاجة طافحة ، ربما تنسي كل مـــا ما كتب عن بغداد ودمشق والقاهرة . فهذا تاريخ تطوان لاخينا الاستـــاذ محمد داود المستوفى ثماني مجلدات ــ وهو التاريخ الوحيـــد المستوفي لكل جوانب التاريخ المطلوب عن احدى مدننا ــ قد كتب عن مدينة ربمـــا كان جانب خاص من جوانب فاس اطفح واعظم من جميع جوانب تطوان فى كل ادوار حياتها ، ولكن حسن التنسيق من المؤلف ، والاكباب على جمـــع النظائر ، وحسن الترتيب ، ومحاولة الاستيعاب ، قد كست الكتاب حلة

---

1) الـــغ بكســـر فسكـــون .

براقة اخاذة بابصار المطالعين ، ومن لنا بمثله عن فاس الماجدة العظيمة التي هي فاسنا كلنا لا فاس سكانها وحدهم ، لان فاس فاس العلم والفكر والحضارة ، لا فاس شيء آخر ، وان تاريخ المغرب الثقافي العام ليكاد كله يكون كجوانب الرحى حول قطب فاس ، فها انذا اعلن عن سوس هذه التي اولعت بها ، أن اول عالم سوسي عرفته سوس فيما نعلمه هو وچّاك ، وهل هو الا تلميذ ابى عمران الفاسي ، وانا هذا الذي احس مني بهذه الهمة ، هل كنت الا تلميذ علماء آخرين واجلّهم واكثرهم تأثيرا فى حياتي الفكرية العلماءُ الفاسيون ، وليت شعري كيف اكون لو لم اقض فى فى فاس اربع سنوات قلبت حياتي وتفكيري ظهرا لبطن ، ثم لم افارقها الا وانا مجنون بالمعارف جنون قيس بن الملوح بليلاه ، حتى نسيت بها كل شيء .

فهكذا فاس ، فهي الاستاذة امس واليوم ، وكل انحاء المغرب تلاميذ لها ، ولعل القارىء عرف ما ذكره المراكشي الصميم صاحب (المعجب) عن فاس فى وقت ازدهار مراكش فى عصرها الذهبي من الاشادة بها ، وتلك مزية كتبت لفاس من الازل ، فكانت احق بها واهلها ، افيجمل بمدينة مثل هذه تطفح بالشخصيات النادرة من العباقرة ما بين لغوي واديب وطبيب وفيلسوف ومشرع ومصلح وسياسي وصوفي ، زيادة عما مضى فيها من الحوادث التي كانت هي الحاسمة فى كل ادوار الحوادث فى المغرب كله ، أن تبقى بلا تاريخ مفصل منظم ، مع ان ذلك فى دائرة الامكان؟

وبعد فليسمع صوت هذا السوسي كل جوانب المغرب من اعظم حاضرة الى اصغر بادية ، فلعل من يصيخون يندفعون الى الميدان ، فنرى لكل ناحية سجلا يضبط حوادثها ، ويعرف برجالها ، ويستقصي عاداتها ، فيكون ذلك ادعى الى وضع الاسس العامة امام من سيبحثون فى المغرب العام غدا على منضدة التاريخ المغربي العام .

ثم اقول لاخواننا السوسيين من الشباب : لا تظنوا انني فى كل ما سودته مما كتبته فى مختلف تلك الاجزاء الخمسين مما خصص بالرجال او بالحوادث او بالرحلات اديت به حتى عشر المعشار من الواجب عن

سوسهم ، فانني ما عدوت ان جمعت ما تيسر جمعا بسيطا كيفما اتفق ، بقلم متعثر ، واسلوب لا يزال يتتبع خطا اساليب القرون الوسطى ، الا انني لا انكر انني حاولت فتح الباب فبذلت جهدي ، وافرغت وسعي ، فكم غلط لابد ان يقع لي ، وكم من تحريف او تصحيف اسم لاجرم واقع فيه ، فعليهم ان يقوموا ليستتموا وليصححوا الاغلاط ، فهل من مجيب ؟

وبعد ، فاليك ايها القارىء الكتاب الاول من تلك المجموعة التي تضم زهاء خمسين جزءا تحت اسماء مختلفة ، فادع الله ان ييسر موالاة نشر تلك الكتب كلها بفضله وكرمه . على انها لا تنشر الا بتنشيطك واقبالك عليها .

وقد كان ينبغي لهذا الجزء ان يخرج الى الوجود منذ جمع سنة 1358 هـ. ولكن تأخر خروجه فكان فى تأخره فوائد منها تنقيحه والزيادة فيه بحسب الامكان ، وها هوذا الآن وفق ما تيسر لا على حسب ما ينبغي من التحرير . فما كان فيه من فائدة جديدة فى عالم التاريخ المغربي ففضل من الله على مغربي لا يطول اخوانه بزيادة علم او فضل ؛ وما كان فيه من تقصير ــ وهو لابد كائن ــ فان التقصير من لوازم البشر. واي عمل من اعمال البشر يسلم . فالله الموفق والستار للعيوب .

الرباط ــ 1379

محمد المختار السوسي

لطف الله به

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه

احق ما يفتتح به كل من له المام بلمعة من المعارف ، ان يحمد الله على ما اولاه اياه ، وان يصلي على رجل العالم القرشي الهاشمي الذي حرر الافكار ، وشحذ العقول ، وهتك الاوهام ، ونفى الخرافات ، فهيأ الافكار لاقتناص المعارف كما هي ، من غير ان تشوبها شائبة من الاهيات اليونان ، واساطير الكلدان ، واوهام البطالسة والرومان ، وخرافات الهند وايران ، كما يحق ان يترضى عن أولئك الرجال الذين تربوا بذلك الرجل العظيم فى وسط تلك البادية القاحلة ، فسادوا من تربوا فى مدارس الاسكندرية وروما وبيزانطة والمدائن وجُنْدَيْسَابُور ، فكانوا خير علماء بعد ان كان تضرب بهم فى الجهالة الامثال ، ويسير باحاديثهم المحققة او المافوكة الركبان ، كما اصبحوا مقاديم قلبوا الكرة الارضية ببسالتهم النادرة ، بعد ان كانوا عند سواهم كالرعاديد ، بل صاروا اشباه الملائكة نزاهة وعلو همة ، وزهدوا فيما يملكون ، فضلا عما لايملكون ، فظهروا بمظهر عجيب ، ومباديء تنسف الاوهام ، بعد ان كانوا ماشاء الله اغوال الصحراء التي تتخبط القوافل ، او تنتهب فيما بينها حربا (1) وفتكا . اذا لم تجد من تنتهب ماله . أو تفتك به . كما يقول احدهم :

واحيانا على بكر اخانا اذا ما لم نجد الا اخانا

فلم تمض الا سنوات عليهم مع معلمهم العظيم ، والنبي الذي بذ كل الانبياء . حتى تقمصوا روحا وثابة سارية ، هي بالكهرباء اشبه منها

---

1) الحرب بالتحريك : النهب

بارواح الناس . فحين واروا معلمهم صلى الله عليه وسلم ـ فداه ابي وامي ـ اصبحوا اشد ما كانوا رباطة جأش ، فلم يفت ذلك فى أعضادهم ، ولا وجد الشقاق متسربا اليهم ، فلم تكن الا عشية وضحاها ، حتى وردت خيولهم ـ دجلة فجيحون فى الشرق ، كما وردت نهر بردى ثم النيل ثم وادي سبو فى الغرب . ثم تسلقت جيوشهم جبال القوقاز والحملايا وتخوم ما وراء كاشغار ، على حين ان فرقة اخرى منهم تتسلق جبال البرينات ، وقد تخطت سهول الاندلس حتى كادت ترد مياه السين ، كما تسلقت قبل ذلك جبال درن الى ماسة حتى دخلت قوائمها فى البحر المحيط وهي تقول : هل من مزيد ؟ .

شرقت كتائب معلمي العالم ـ لا غزاته ـ وغربت ، وشذبت بعدلها من قوانين الانسانية وهذبت ، ومهدت بمساواتها بين ابناء آدم ما مهدت ، حتى انقادت الامم ، فدخلت فى دين الله افواجا ، فترد من لغة ذلك الدين العدل صافيا عذبا زلالا ، وتلقي من لغاتها وراء اجاجا ، فاقبلت على تلك اللغة تتحلى بها فى المجامع ، وتشمخ باتقانها فى المحافل ، هذا ورئيس (1) من رؤساء تلك الكتائب فى ناحية من دمشق يتوضأ ، والبشارات تتوالى عليه ، كأنما الدهر يقول له : ما غلبتني انت واصحابك الا بما تستمدونه من هذا الوضوء ، ثم فى تلك الوقفات التي تقفونها مستقبلين تدعون ، وكل دعاء احدكم : رب زدني علما ـ هل يستوي الذين يعلمون والذين لايعلمون ؟ ـ ومن كان مبداه العلم والعمل . ونفع الانسانية جمعاء ، فأحر به ان يسود العالم كله بمبادئه السامية .

كان الاذان شعار اولئك المعلمين ، فاينما وصلته ارجلهم ، ولامسته ايديهم ، جللته السنتهم بكلمة الله العليا : الله اكبر ، الله اكبر ، الله اكبر ، فكانت صخرة قرية : اَتَامْزْوَّاسِيف من سملالة بجبال جزولة ـ حيث الاطلس الصغير ـ ، أول ما تشرف هناك بتلك الكلمة باديء بدء فى جبال جزولة (2) فلو كان اسلاف هذه الامة ممن تنسيهم الاثار الاعيان ، ويتأخرون عن المقاصد بالوقوف مع الانصاب ، لكانت هذه الصخرة مكللة بالياقوت والجوهر ، ومجللة بالسندس والحرير ، ولكن انى يكون ممن

---

1) الوليد بن عبد الملك الاموي الذي كان يتوضا يوما ، وقبل ان يتم وضوءه توارد عليه خبر فتحين عظيمين شرقا وغربا .

2) البعقيلي فى كراسه وذكر ان ذلك متواتر ، والكتاب مخطوط ، وقبر ذلك المؤذن لا يزال معروفا ازاء تلك الصخرة

عرفوا تلك الكلمة العليا حق المعرفة ، من يلتفتون الى الاحجار ، وان كانت ذات تاريخ مثل هذه الصخرة ، بعد ما خاطب الفاروق الحجر الاسود بما خاطبه به يوم استلمه : انك لاتنفع ولا تضر ، وبعد ان استأصل الشجرة التي كانت تحتها بيعة الرضوان ، فاستأصل بذلك ما عسى ان يكون باقيا فى نفوس من لم ينسوا بعد (ذات انواط)

اتم العصامي ادريس ـ 172 هـ ـ ما كان قبل مؤسسا ـ 62 هـ ـ ثم فى ـ 87 هـ ـ بايدي عقبة وابن نصير ، فبث التعاليم ، ونشر بحسب الامكان العلم العربي ، فاستقبل به المغرب عهدا جديدا ، لم تقدر يد الشماخ (1) ، ولا حيلة البرمكي ، ان تزعزعا اركانه ، فان الذين تلقوا شابا ، لم يسلخ الا نحو خمسة وعشرين ربيعا ، وليس معه الا عبد واحد ثم رفعوه على العرش برضى منهم ، ثم ناولوه الصولجان ، ثم وقفوا بين يديه مصطفين ينتظرون أوامره ، لينفذوها فى انفسهم وفى اموالهم ، اولئك قوم ما اقدموا على ما اقدموا عليه ، حتى عرفوا ما يصنعون ، وقد خالطت التعاليم الجديدة بشاشة نفوسهم ، وملأت اعماق قلوبهم ، فرموا العصبية الجنسية ظهريا ، فاستقبلوا المنفعة المجسمة من اعمال ابناء تهامة ونجد بكلتا اليدين ، فيرون اتم الشرف فى ان يكونوا مرؤوسين لاحد اولئك الابناء ، رغما عن كل الدسائس والمكر والخديعة التي تنالهم بواسطة ابن الاغلب ، القاضي بمكره على أميرهم ثم على مولاه الامين ، فلم يصعب عليهم ان ينتظروا وراء اميرهم المرموس نسمة اخرى مباركة من نسله ، يسير بها ذلك العهد الجديد سيره الطبيعي الى المدى الذي هو لابد مدركه ، وان كره البغداديون .

تأسست عاصمة الدين والعلم والحضارة (فاس الخالدة) ـ 192 هـ ـ فصارت منبع العلم ، وميزان الدين ، ومقياس الشعور والحضارة فى المغرب فكانت تاخذ من القيروان ثم من قرطبة ما تاخذ ، ثم تمد الى القرى والقبائل الجبلية والصحراوية ، من روحها وحضارتها وعلمها الجم ما ينمو مع الايام ، فلم يمض الا زمن ليس بالكثير ، بحسب بيئة ذلك العصر ، حتى رأينا المغرب يكتسي حلة عربية ، وقد تأصلت فيه العلوم العربية ، وتأسست لها معاهد . وقد كانت (سبتة) تضاهي فاسا

---

1) اسم الذي سم ادريس بن عبد الله براي يحيا البرمكي وزير هرون الرشيد .
2) فى كتاب (المرقى فى اخبار سيدي محمد الشرقي) ان فى تادلة زوايا علمية فى القرن الرابع ، والكتاب مخطوط .

فى هذه المهمة بل تفوقها احيانا ، كما كانت (سجلماسة) و (اغمات) و (سلا) و (طنجة) و (تادلة) ، تسير أيضا فى ذلك المنهج ، على اختلاف سير بعضها عن بعض ، فتؤدي تلك المهمة العظيمة التي بها تحيا الشعوب ، وتمجد الاقطار ، ومتى اراد الله احياء قطر هيا له بحكمته الاسباب (ان ربي لطيف لما يشاء) .

هل فى سوس علم واسع من قبل القرن التاسع ؟

كانت سوس من الاطراف التي تشع نحوها هذه الحواضر بما فيها ، وقد كان الاسلام أطل عليها من أيام عقبة (62) هـ ثم رسخ فيها أيام ابن نصير (87) هـ وهو الذي راينا احد اولاده فى (اغمات) يسير دفة ما وراءها ، فاذ ذاك تخطاها الاسلام الى الصحراء ، فكان هناك راسخا ، وقد راينا عهد الامام ادريس : (175 هـ) من وفدوا عليه من هناك راسخي الاسلام ، مغتبطين به من اسلاف الدولة اللمتونية ، الذين تاسست منهم فى القرنين الثالث والرابع دولة ساذجة فى الصحراء ، فهكذا كانت سوس دائما فى مقدمة اطراف المغرب ، وهي وان كانت ذنبه ، فقد يكون الذنب من بعض ذوات الريش احسن ما فيها ، اذن لابد ان يكون فى سوس (1) من قادة الدين من علمائه من يقودون الشعب المتدين بهذا الدين الجديد . ولابد ان تصل تلك الناحية شعلة من الاضواء التي ارسلها عمر بن عبد العزيز الى افريقية . سنة (100 هـ) ليبثوا الدين فى صدور الافريقيين المستظلين كلهم براية الاسلام ، وما تثبيت دين الاسلام الا ببث لغته ، وما استجد اذ ذاك من علوم الدين ، ثم راينا (سجلماسة) فى القرنين الثالث والرابع مع (اغمات) ، مزدهرتين بالعلوم . او تقربان الى الازدهار ، وما بين سوس وبين هاتين المدينتين الا ما بين الجيران الذين يكونون سواسية فى المنافع والافكار ، ويظهر انه ربما كانت سوس الشرقية منقسمة سياسيا بين اغمات وسجلماسة ، بعد ضعف الادارسة ، الذين كانت سوس من ايالتهم . فهناك عبد الله بن ادريس باني تامدولت ومجدد ايكلي كما راينا البورغواطيين قد امتدوا حينا الى تلك الجهة حتى قيل انهم وصلوا ماسة ،

---

1) نعني بسوس فى كل اعمالنا التاريخية فى هذا الكتاب وغيره ما يقع من سفوح درن الجنوبية الى حدود الصحراء من وادي نول وقبائله من تكنة والركائبات وما اليهما الى حدود طاطة وسكتانة .

وكما كان هنالك فى تارودانت بعض احفاد (1) الادارسة ، رافعا لواء النحلة التي سميت فيما بعد : « **البجلية** » على حين ان جبال جزولة تخالفها ، وتتشبث بما عند أهل السنة (2) او ليس من المتبادر ان يكون بين هذه الفرق علماء دينيون ، يقودون الافكار ، ويلقحونها بالادلة لكل فريق ، ولا يكون ذلك الا بتعاطى العلوم الموجودة اذذاك وان بعض تعاط، وهؤلاء الجزوليون هم من يظهر لنا انهم اسلاف العلامة وچاچ (445) (3) وبعضهم يقول انه من اخوان السملاليين واسلاف عبد الله بن ياسين « **التامانارتي** » الجزولي (451) هـ فقد راينا الاول القى جرانه فى (اَچنلو) من ضواحي (تزنيت) بعدما تخرج من (القيروان) وما كان ليسكن هناك ، ويرفع رايته ، ويقر به القرار ــ ان صح انه غريب عن هذه الديار ــ لو لم يجد من يعينه ، ويتدعم به بنيانه من اهل البلاد، وهل يعين اهل العلم الا اهل العلم ؟ او من كانوا عرفوه وعرفوا ما ينتج وراءه، كما راينا الثاني ابن ياسين بعد ما مكث فى (قرطبة) سبع سنوات ، قد اختمرت فى نفسه فكرة ، ثم لم يكد يسمع هيعة فى الصحراء حتى كان اول طائر اليها، فكان من عمله ما كان. ثم كان كل عمله راميا الى تشييد العلم. وتقديم الفقهاء فى كل شيء ، ثم لم ينس الفقهاء من جزولة عندما كانت الغنائم تدخل يده .

تأسيس مدرسة أكلو

تاسست مدرسة (اَچنلو) فى اول القرن الخامس ــ وموقعها فى ضواحي تزنيت ــ ، وهي اول مدرسة عرفها التاريخ الى الآن فى بادية المغرب ، وكانت تسمى الرباط . ويسمى سكانها مرابطين ، وان كان ما يعرفه التاريخ اليوم من تلك الاولية . لايدل على انها هي الاولى فى الواقع ، فان هناك بصيصا يتراءى منه ان حركة علمية موجودة مع مدرسة (وَچّاچ) هذه ، وربما كانت قبلها ، ولا حركة عملية بلا مدرسة ، وكانت المساجد من قديم هي عين المدارس ان كانت فيها الدراسة ، وقد قرانا بين اخبار عبد الله بن ياسين : انه

---

1) ص 140 ج (4) من الملل والنحل لابن حزم ، وسماه احمد بن ادريس وقد كان معروفا ان تلك النحلة رسخت هناك فى اول الرابع بمساعي علي بن عبد الله البَجَلي .

2) الرسالة المرغيتية فى الوهْدَاويين ، وهي مخطوطة .

3) ما بين القوسين للوفاة .

كان يسرب من غنائمه فى الصحراء الى الفقهاء فى هذه الجهات ، ولعل هناك عددا يوجدون مع شيخه وَجّاج (1) .

انطوت القرون الخامس فالسادس فالسابع فالثامن عن سوس ، ولم نر عنها ما يدل على حركة علمية واسعة تذكر عن سوس ، ولولا افـــراد سياسيون كابن تومرت ، وصوفيون مذكورون فى السادس فالسابع فالثامن ، لخيم على سوس ما خيم عليها فى الثالث والرابع ، من ديجور (2) كثيف فى نظر التاريخ . وصوفية ذلك العصر صوفية علمية غالبا ، قلما يبرز واحد منهم ويذكر الا اذا كان معه علم قليل او كثير .

ان هناك بعض افراد من احفاد واجّاج وسيدي وَسّاي واســـلاف الأَغْرِيّابُوئيين يذكر بعضهم(3)فى السادس، ايمكن انلايكونوا علماء، معان ذلك ارث جدودهم ، وابناءالعلماء لا يبرزون ثانيا الا بالعلم ، ما داموا يظهرون مثل ذلك المظهر ؟ ايكون ابو يحيى الجَرْسِيفِي (685 ه) وعمه سعيد بن النعمان (650 ه) وهما جليلان علما ــ خصوصا اولهما ــ وحدهما فى السابع ؟ مع ما تتموج به الاسمار من انتشار العلم كثيرا فى دائرتهما ، حتى ليقـــال : ان هناك مدفنا لكذا وكذا (4) من البنات يحفظن المدونة ، فضلا عن الرجال ، وهناك ايضا ما يقال من ان سيدي وسّاي او ابناءه والركراكي هم مـــن اوائل من زاولوا شرح المدونة فى سوس . ايمكـن ان تؤسس مدرســـة أَرَارِيف فى ايت حامد فى الثامن (5) من غير ان نحكم بان هناك حركة علمية واسعـــة ؟

ان هذه اسئلة يصعب على من لم يقع على مواد جديدة مما لم يشتهر الان ان يجيب عنها جوابا مقنعا ، فالادلة العقلية قد تقضي كما ترى بـــان بعض الشيء من اتساع الحركة العلمية كائن ولابد . ولكن تعوزها الادلـــة النقلية ، فمن عرف كيف (اغمات) قبل تاسيس (مراكش) وبعده ؟ ، وكيف (مراكش)بعد ما تأسست ؟ ، وكيف حاحة من السادس عهد ابـي سعيـد

---

1) جزء 1 ــ 101 من الاستقصاء طبعة مصر ، وهنـاك نص بانه كان يسرب من الغنائم الى طلبة المصامدة ومقصوده كما يظهر اهل بلده جزولـة .

2) هذا الديجو ريكاد يكسو كل اطراف المغرب فى هذين القرنيـن حتى حواضره اذ ذاك لا سوس وحـدهـا .

3) يقال ان عمرو بن هرون الشهير فى اواخر السادس من احفاد وجاج ويظهر انـه امـي من حكايته المشهورة مع المزوزي الحاحي التي فى (الرحلة العبدرية) وقد وقفنا علـى نسبـه الصحيح بخط ابن العربي الادوزي ، فهو علوي قرشي غير انه ليس بوجاجي ولذلك لا يورد علينـا هنـــا .

4) (الجرسيفيون) ، مخطوط .

5) شـاع ذلـك ثم وجدتـه بخـط بعض المعتنيـن .

الحاحي المزازي صاحب (منازل العلم) ، ومن السابع عهد العبدري صاحب (الرحلة) وكيف سجلماسة من القرن الثاني فالثالث ، فهلم جرا ؟ وعرف مع ذلك كيف اعتنى اللمتونيون والموحديون بالعلوم وبنشرها فى المغرب ؟ وعرف ان مراكز هاتين الدولتين (1) لابد أن تكون بسوس . وعرف ايضا ان أغمات ومراكش وحاحة وما الى سجلماسة مغدى السوسيين ومراحهم ، يكاد يجزم بان كل ما كانت طلائعه فى القرن الخامس بسوس . ايام وَجّاج ، مما يظهر انه متسع الساحة ، لم تنطفىء جذوته . ولا جزر مده فيما يلي ، وما الجزولي صاحب الكراسة (616 ه) ولا ابو يحيى الچرسيفي المفسر المحدث الكبير خريج الاندلس ، ولا عمه سعيد بن النعمان ، ولا ابن عمه الجزولي الچرسيفي نزيل فاس صاحب الشروح المتعددة على الرسالة (741 ه) وامثالهم كالذين يكاتبهم ابن البناء ويجاذبهم علم التوقيت فذكرهم فى بعض كتبه ، الا افراد امكن لهم ان يظهروا فى التاريخ لدواع خاصة ، على حين ان آخرين من معاصريهم غمروا ، ولم يتأت لهم من مثل تلك الدواعي ما يعرفهم به التاريخ . والا فلا يمكن ان يزخر المغرب كله بدوه وحضره بالعلوم العربية ايام الموحدين ، ثم تبقى جزولة فى نومها العميق ، وجهلها الدامس. وهي التي نراها سباقة الى كل غاية ، ومادة يمينا عرابية الى كل راية .

هل ضياع أخبار تلك القرون هو سبب عدم ادراكنا مجد سوس العلمي ؟

طالما رجعنا البصر كرتين ، واكثرنا الامعان فى عدم شهرة تلك القرون بالعلم العربي السوسي كما اشتهرت به بعد ذلك ، فتراءى لنا ما ربما نميل الى ترجيحه احيانا ، من ان السبب الوحيد هو ما ابتلى به السوسيون الى اليوم ، من عدم الاعتناء برجالهم ، والتفريط دائما لا ينتج الا الجهل المظلم ، وهذا العيب لا يزال فيهم ماثلا الى الان ، كانه ممتزج بدمائهم ، مستحوذ على البابهم ، فلولا دواع خاصة لبعض الناس ، لما راينا ايضا من القرن التاسع الى الان الا مثل ما نراه فيما قبل . مما بين القرنين الخامس والثامن ، فلولا (التشوف) للزيات لما ظفرنا ببعض صوفية سوسيين ، ولولا مؤرخون آخرون غير سوسيين لما ظفرنا بآخرين من فطاحل علماء سوس اذ ذاك، نزلوا

---

1) من مراكز اللمتونيين المشهورة الى الان : مركز السوق بتانكرت فى افران ومركز فم اكادير بتامانارت ومركز ءاخر فى (تاغاجيجت ، وكان وادي نون مضرب سكتهم

القيروان ومراكش وفاسا وغيرها ، وبآخرين : منهم من كان عالما وسطا ، ومنهم من نحسبه كذلك ، ومنهم من لا نظنه الا عابدا صوفيا لا غير ، كما انه لولا دواع اخرى لاناس آخرين ، لما راينا من التاسع الى الان شيئا ، فكان الشكر الجزيل للدواعي الخاصة التي تعتني بوجهة يحفزها اليهاحافز ، اما التاريخ العام الذي يترامى الى نواح شتى ، فلم نحسب انه جال قط فى دماغ سوسيين الى الان .

النهضة العلمية السوسية بعد الثامن وأسبابها

راينا فيما تقدم كيف كانت حالة سوس العلمية منذ اعتنقت الاسلام الى الثامن ، ولم تكن بحالة مبهجة ، اما لكونها كذلك فى الواقع ، واما لان سجوفا من الجهل الكثيف بالتفريط، اسدلت دونها، غير ان حالة تلك القرون ان لم تكن سارة مبهجة ، فقد جاء التاسعبفاتحة خير ، وطلع بفجر منير ، وسفر عن وجه يقطر بشاشة وبشرا ، حقا كان القرن التاسع قرنا مجيدا فى سوس ، ففيه ابتدات النهضة العلمية العجيبة التي راينا آثارها فى التدريس والتاليف ، وكثرة تداول الفنون ، وقد تشاركت سملالة وبعقيلة ورسموكة ، وآيت حامد واقا ، والجَرْسيفيون ، والهشتوكيون ؛ والوادنونيون ، والطاطائيون ، والسكتانيون ، والراسلواديون وغيرهم فيها ، ثم جاء القرن العاشر ، فطلع بحركة علمية ادبية اوسع مما قبلها ، تشده كل مطلع ، فقد خرج العلماء الى الميدان الحيوي ، والمعترك السياسي ، فشاركوا فى الامور العامة ، واستحوذوا على قيادة الشعب ، فكانوا سبب توطد الدولة السعدية ، ثم جازتهم هي ايضا بدورها ، فكان منهم افراد بين الكتاب والشعراء الملازمين للعرش ، والسفراء وروساء الشرطة ، وقواد الجند ، والحرس الملكي الخاص (1) فزخرت سوس علما بالدراسة والتاليف، والبعثات تتوالى الى فاس ومراكش ، والى الازهر ، فكانت تؤوب فى ذلك العهد بتحقيقات اليسيتني ، والونشريسي ، وابن غازي ، ونظرائهم ، حتى كان كل ما يدرس فى القرويين يكاد يدرس فى سوس ، قولة لا تنفج فيها وانها لحقيقة ناصعة يقر بها كل مطلع (وما يوم حليمة بسر) .

---

1) من مجموعة لدوكاستري انه لا يتولى فى الحرس الخاص فى عهد السعديين الا الجزوليون .